المتوفاة . ولم يكن سفيره في لندن يكف عن الحاحه في البلاط لكي يرسلوا انطوني جنكنسون الى روسيا وأن يكون جواب الملكة « مكتوبا باللغة الروسية لأن سيده لا يفهم لغة أخرى » .

وكتبت له الملكة يوم الثامن عشر من أيار . ١٥٧٠ ولكن رسالتها لم تتعرض لأمر الزواج . كلا لم تفعل . إلا أن جلالتها كانت مؤمنة بالمؤامرات التي تحاك حول القيصر ، وعرضت عليه في حال إضاعته لتاجه أنها تؤمن له المجيء الى انكلترا والخروج منها على هواه مع تخصيص سكن مناسب له يستطيع أن يقيم فيه ما يشاء من الوقت على أن يتكفل هو بمصاريفه ونفقاته .

ولم يعجب ذلك إيڤان . فسحب ما كان يخص به الشركة الروسية من امتيازات وصادر بضائع بعض تجارها بل وألقى بهم في السجن . ثم ما لبث أن اكتشف أن بعض التجار الانكليز كان لهم صلات مع الخونة ، ذلك لأنه كان من الصعب في ذلك الوقت أن تجد روسيين في منجى كامل من تهمة الخيانة ، ومن كان محظيا اليوم سيكون خائنا في الغد .

ومع ذلك فإنه عندما جاء يوم الإعدام العظيم في الخامس والعشرين من تموز يوليه ١٥٧٠ لم يكن بين السجناء المرشحين للموت أي واحد من الانكليز . وربما لم يكن القيصر يطيل التفكير في القضايا الخارجية لأنه كان مستغرقا تماما في نزوات اجرامه وقسوته .

كانت قسوته تغذي نفسها بنفسها حتى أصبحت سرطانا متوحشا . وفي استغراق القيصر العقلي لم يكن يوجد أي بصيص للشفقة أو العطف الانساني . وفي غرف التعذيب وزنزاناته كان ثلاثمائة الأشخاص يعذبون ويمزّقون ويحرقون وتبتر أعضاؤهم على أن يحتفظ بهم على قيد الحياة . وفي الساحة العامة بين دكاكين كيتاي غورود نصبت آلات جهنمية كثيرة منها غلاية ضخمة مليئة بالمياه ومعلقة فوق كومة من الحطب ، ومقلاة